MENA PRISON FORUM
مُنتدى المَشرِق والمَغرِب للشُّؤون السِّجْنيَّة

العَوْدُ إلى بني أُمّي

عن سجن زحلة وسُجون أُخْرى...

شهادة سجين سابق
دَوَّنها
حسن الساحلي

ifa Institut für Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt
umam للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

الدفتر الثّالث

بَيْضاء في الأصْل

شهادة سجين سابق
دَوَّنها
حسن الساحلي

العَوْدُ إلى بني أُمّي

عن سجن زحلة وسُجون أُخْرى...

ifa Institut für Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt

MENA PRISON FORUM
مُنتدى المَشرِق والمَغرِب للشُّؤون السِّجنيَّة

UMAM
للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

منتدى المشرق والمغرب للشّؤون السجنيَّة
[مشروع بتوقيع **أمم للتوثيق والأبحاث**]
دفاتر المُنْتَدى [٣]
بيروت، ٢٠٢٠/٢٠١٩
هاتف: ٥٥٣٦٠٤ ١ ٩٦١ +
صندوق بريد: ٢٥ ـ ٥ الغبيري، بيروت ـ لبنان
مُراجعة وتدقيق: صلاح الـچيلاني

Documentation & Research

www.umam-dr.org | www.memoryatwork.org

إنَّ الآراءَ الـوارِدَةَ فـي هـذه المَطْبوعَـةِ التـي كان إنْجازُهـا ونَشْـرُها بِدَعْـمٍ مِـنْ «مَعْهَـدِ العَلاقـاتِ الثَّقافيَّـةِ الخارِجيَّـة (ifa)» ـــ (المُمَوَّلِ مِـنْ وِزارَةِ الخارجيَّـةِ الألمانيَّـة) ـــ إنَّ هـذه الآراءَ تُعَبِّـرُ، حَصْرًا، عَـنْ وُجْهَـةِ صاحِبِهـا وناشِـرِها، وعَلَيْـهِ فهـي لا تُلْـزِمُ، بـأيٍّ شَـكْلٍ مِـنَ الأشْـكالِ، المَعْهَـدَ، ولا تَعْكِـسُ، بالضَّـرورةِ، مُقارَبَتَـهُ المُؤَسَّسـاتيَّةَ مِـنَ المَسـائِلِ مَوْضـوعِ البَحْـثِ والـرَّأْي.

Institut für Auslandsbeziehungen

Auswärtiges Amt

العَوْدُ إلى بَني أُمِّي
على سَبيلِ التَّقْديم

هـذا الدَّفْتَـرُ، الثَّالِـثُ مِـنْ دَفاتِـر مُنْتَـدى المَشْـرِقِ والمَغْـرِبِ للشُّـؤونِ السِّـجْنِيَّة،[1] يَدِيـنُ لاثْنَيْـن: لِـ«فُـلان» ــ «السَّـجينِ السَّـابِقِ» الـذي آثَـرَ التَّكَتُّـمَ على اسْـمِه، وَلِحَسَـن السَّـاحِلي[2] الـذي ائْتَمَنَـهُ فُـلانٌ علـى تَجْرِبَتِـهِ، بِمـا فيهـا الفَصْـلُ السِّـجْنِيُّ منهـا، وَعَهِـدَ إلَيْـهِ أنْ يُدَوِّنَهـا نِيابَـةً عَنْـه...

الدَّيْـنُ مُـزْدَوَجٌ، إذًا، ولكِـنَّ الشَّـهادَةَ، وهـي مـا يَعْنينـا فـي هـذا المَقـامِ، واحِـدَةٌ لا تُمَيِّـزُ بَيْـنَ صاحِـبِ السِّـجْنِ وصاحِـبِ الرِّوايَـة. كَذلِـكَ، لا يَظْلِـمُ القـارِئُ أيًّـا مِـنَ الاثْنَيْـنِ إنِ انْصَـرَفَ إلـى مُطالَعَـةِ هـذِهِ الشَّـهادَةِ لا مُلْقِيًـا بـالًا إلـى شَـيْءٍ سِـوى مـا تَقُصُّـهُ مِـنْ سـيرَةِ فُـلانٍ، وهـيَ سـيرَةٌ يَجْـري عَلَيْهـا وَصْـفُ «السِّـجْنِيَّةِ» ــ لا بِلِحـاظِ مـا يَتَخَلَّلُهـا مِـنْ أسـابيعَ وَراءَ قُضْبـانِ سِـجْنِ زحلـة، (شَـرْق لبنـان)، فَحَسْـبُ، وَإنَّمـا بِلِحـاظِ مـا تَنْفَتِـحُ عَلَيْـهِ، ومـا تُخْتَتَـمُ بِـهِ، مِـنْ تَعَـذُّرِ الحُرِّيَّـةِ، أحْيانًـا، حتَّـى فـي الهَـواءِ الطَّلْـق.

بالطَّبْـعِ، لهـذِهِ الشَّـهادَةِ أنْ تُطالَـعَ أيضًـا بِوَصْفِهـا، فـي مَواضِـعَ مِنْهـا، «ألْبـومُ صُـوَرٍ»، بِرَسْـمِ التَّصَفُّـحِ، عَـنْ سِـجْنِ زحلـة، ونُزَلائِـهِ، ومـا بَيْـنَ السِّـجْنِ وَجِـوارِهِ،

---

(١) وهـيَ سِلْسِـلَةُ كُتُـبٍ وَكُتَيِّبـاتٍ، لا دَوْرِيَّـةَ مُنْتَظِمَـةٌ لهـا، مَدارُهـا علـى المَسْـأَلَةِ السِّـجْنِيَّةِ فـي أبْعادِهـا الشَّـخْصِيَّةِ والعامَّـة.

(٢) كاتب وصحفي لبناني متخصص بالفنون البصرية والصوتية.

وَتَفاصيـلَ أُخْـرى، وهـيَ، بهـذا المَعْنَـى، مُسـاهَمَةٌ فـي «الأدَبِ السِّـجْنِيِّ اللُّبْنانِـيِّ» بالمَعْنـى الواسِـعِ لِلْكَلِمَـة.[٣]

وإذْ هِـيَ كذلـكَ، فهـذِهِ الشَّـهادَةُ، أيْضًـا وأيْضًـا، نَـصٌّ حَقُّـهُ أنْ يُقْـرَأَ تَحْـتَ هـذا العُنْـوان... فَشُـكْرًا لمـن كَتَـبَ، وَشُـكْرًا لِمَـنْ حَـرَّرَ، حتَّـى باتَـتْ هـذِهِ «الرِّوايَـةُ» مَشـاعًا يَأْتيـهِ القـارِئُ والقارِئَـةُ مِـنْ حَيْـثُ يَـشاؤون!

مُنْتدى المَشْـرِق والمَغْرِب للشُّؤون السِّجْنيَّة

(٣) رغـم أن لبنـان، قياسًـا بجيرانـه، لا يَأتـي فـي صـدارة المشـهد السـجني، فـإن هـذا «التَّخَلُّفَ» لا يعنـي غيـاب «المسـألة السـجنية» عـن ماضـي لبنـان وحاضـره، ولا بالأولـى أنَّـهُ لا أدبَ سِـجْنِيًّا لبنانـي.

بَـــرَاءَةٌ في الـوَحْـــل

خـلال طفولتـي المبكـرة أُصِبْـتُ بالرَّبْـو؛ لـذا لـم أعْـتَدْ علـى الخـروج كثيـرًا مِـن بيتنـا الواقـع فـي إحـدى بلـدات منطقـة بعلبـك ـ الهرمـل.[1] لـم يُعَوِّضنـي أخواتـي الفتيـات الثـلاث عـن وَحْدَتـي تلـك. كان عالمـي محصـورًا فـي أماكـنَ شـديدة النظافـة لا يدخلهـا الغُبـار ـــ بيتنـا وبيـوت أقاربنـا التـي تثـق أمـي بنظافتهـم وحسـب.

حتـى بعـد شـفائي فـي عمـر السـابعة لـم يَتَغَيَّـر الأمـرُ كثيـرًا، حـاول أبـي أن يُنْـقِذ انطوائيَّتـي التـي بـدأت تتكـون رغمًـا عنـي، فهـو يرانـي لـم أُصـادق أحـدًا ولـم ألعـب سـوى منفـردًا. الكلمـةُ العُليـا كانـت لأمـي، فـآل كثـرة الشّـجار إلـى ابتعـادِ أبـي رويـدًا رويـدًا عـن المنـزل، وإلـى انحصـارِ دوره فـي الإعانـة الماديـة فقـط.

لا أعْلَـمُ كيـف بـدأ الأمـر... فأنـا أصغـر إخوتـي... لـم أفهـم قَـطُّ متـى بـدأتْ تعاسـة أمـي... لكنّهـا مُشَـخَّصَةٌ طِـبِّـيًّا بمـرض الوسـواس القهـري،

(١) هي المنطقة الواقعة شمال شرق لبنان.

وكثيـرًا مـا تَطَـوَّرَ الحـالُ بهـا لتدخـل فـي نوبـات اكتئـابٍ شـديدة. ولأنَّ مرضهـا كان مُزمِنًـا فقـد اعتدنـا علـى كثـرة ذهابهـا للمستشـفى.

أُمٌّ مريضـةٌ بالقلـق... وطفـلٌ مُصـابٌ بالربـو... وأَبٌ يُحـاول إخـراج ابنـه مِـن قـوقعة أُمِّـه، كان مُـدركًا لمرضـي ولكنـه كان صاحـب فطـرةٍ هادئـة؛ كان يقـول لهـا: ذلـك القبـر لـن يشـفي ولدنـا، أُتركيـه يلهـو مـع الأطفـال!
أحيانًـا أُحَمِّـلُ نفسـي ومَرَضـي ذَنْـبَ اشـتداد حِـدَّة القلـق عنـد أمـي. وكثيـرةٌ هـي الليالـي التـي أمْضَتْهـا جالسـةً علـى الصّـوفـا حتـى الفجـر، لا تفعـل شـيئًا سـوى التفكيـر بالاحتمـالات السـيئة التـي قـد تحـدث لأحـد أقربائهـا. تتصـل بخالـي مثـلًا بعـد منتصـف الليـل، لأنهـا سـمعتْ إطـلاقَ نـارٍ فـي البلـدة، وخافـت أنْ يكـون قريبًـا مِـن منزلـه الـذي يقـع قـرب أحيـاء المطلوبيـن. أو تُبقينـا فـي غُـرَفٍ معينـة مـن المنـزل وتمنعنـا مـن المـرور قـرب الشـبابيك بسـبب الاشـتباكات بيـن العشـائر.

خوفهـا مـن الخـارج العنيـف فـي منطقتنـا، ضَيَّـقَ عالمـي وَحَصَـرَهُ أكثـر وأكثـر ضمـن مسـاحةٍ صغيـرةٍ قـرب بيتنـا. وقـد حَرِصَـتْ علـى تخويفـي مـن عُنْـفِ وشـرِّ أولاد العشـائر الذيـن يعيشـون علـى مقربـةٍ خلـف منزلنـا، حيـث الصغـار فـي مثـل سـني يلعبـون كـرة القـدم علـى الطريـق.
وكمـا أظـنُّ، لـم يكـن خوفهـا محصـورًا مِـنْ خشـونة لعبهـم، بـل أيضًـا مـن تعرضـي للتحـرش مـن الأولاد الأكبـر سـنًّا؛ ولعلـه الخـوف الـذي كان يحسـم الجـدال مـع أبـي، لتبـرر لـه لوائـح المنـع الكثيـرة التـي كانـت تصدرهـا تجاهنـا.
ورغـم عـدم اندماجـي معهـم إلا أنـي لَـمْ أَسْـلَمْ مِـن بعـض المُضايقـات،

منها ذكرى محفورة في رأسي، تُشعرني بالأسى كلما تذكرتها. ذلك الهلع الذي تملكني وأنا أركض خائفًا مِن ولدٍ منهم يُلاحقني، وفي يده حجر يهددني بضربه. لا أنسى ذلك الموقف، ليس لخوفي من الحجر... بل لأني كنت أخشى أن يراني أحد وأنا أركض من ولدٍ أصغر مني بسنوات وحجمي ضعف حجمه! تملكني شعورٌ أنَّ أبي كان بالجوار وراقب ذلك المشهد المُخْزي مُتَحَسِّرًا على رَجُلِهِ الوحيد!

لما كبرتُ قليلا لم يجد أبي بُدًّا من التدخل، فصار يأخذني معه إلى الصيد. رغم ذلك، حين أستعيد ذكريات تلك الرحلات، يغزوني نفس شعور الخوف الذي كان ينتابني وأنا تائِهٌ في الأحراش أُحاول إيجاده. كان هلعي يتنامى كلما مَرَّ وقت أكثر بدونه وأصير أحيانا أطلق أعيرةً ناريَّة من بندقيتي الصغيرة (١٢ رفيع)، علّه يعرف بأني أبحث عنه. كنت أجلس كـأُمِّي... أتخيل سيناريوهات قضائي الليل وحيدًا وتحولي، ربما، إلى وجبة لإحدى الحيوانات.
مؤخرًا، عندما أخبرته بذلك، تفاجأتُ به يقول إنه كان يَتَعَمَّد تَرْكِي كذلك ولكن دون أنْ أغيب عن ناظِرَيه! تلك كانت طريقته لأعتمد على نفسي وأواجه الخوف... لأتعلم كيف ستكون الحياة في الحقيقة عندما أكبر!

أما عن مدرستي، فقد كانت خارج البلدة، ما قطع الطريق أمام تكوين أي صداقات مع أبناء البلدة أو اندماجي مع واقعها.
لم يكن لي أصدقاء سوى ابن عمي الذي يقطن بالجوار، وابن خالي الذي يقطن على مشارف البلدة حيث تكثر بيوت عشيرة

أمـي. وكان هـو مصـدري الوحيـد للتعـرف علـى تلـك العشـيرة، وعنـده سُـمح لـي باللعـب فـي الشـارع كأيِّ صبـيٍّ طبيعـيّ.
تعرفـتُ علـى بقيـة الرفـاق الصغـار، وسـويًّا سـوف نَشُـبُّ وننضـج. كل مِنَّـا قـد اكتسـب شـخصيته التـي سـيكبر عليهـا بالفعـل، ولـن تختلـف أدوارنـا كثيـرًا إلّا بتحـول اللعـب إلـى جِـدّ. لـم أشـعر بالألفـة معهـم، لكـن لـم أسـتطع الابتعـاد عنهـم...
لـم أفقـد الغربـة بينهـم، لكـن لـم أكـن أخـاف منهـم كغيرهـم... فَهُـم فـي النهايـة عشـيرتي! لكنـي قَـطّ لـم أكـن مُنْفَتِحًـا مثلهـم، بـل لـم أكـن أسـتطيع إخفـاء قَرَفِـي مـن روائـح منازلهـم الكريهـة بالنسـبة لـي، والعشـوائية فـي ترتيـب حاجاتهـم وملابسـهم المُتَّسِـخَة، فضـلًا عـن تَـقَزُّزي مـن طعامهـم إذا حـدث ودعيـت إليـه... إنهـا عُـقْدَةُ أمـي القديمـة!

أصدقـاء الطفولـة أمـس هـم ذاتُهـم تُجّـار الحشـيش اليـوم! لكـن كأنَّهـم نسـوا صداقتنـا القديمـة أو قرابـة النسـب، فمـا إنْ أتأخَّـر فـي دفـع المـال يتحولـون بسـرعةٍ معـي، بـل يُهَدِّدونـي أحيانًـا بِكَيْـتَ وكَيْـتَ... ممـا لا أُحِـبُّ تَذَكُّـرَه... يـبدو أنهـم تـغيَّروا قـليلا!
مـع أنّ دَوري لـم يتغيـر فـي شِلَّـتهم، فالصغيـر الـذي كان ضعيفًـا أمـام شراسـتهم قديمًـا، هـو نَفْسُـهُ الـذي صـاروا يَسْـتَقوون عليـه اليـوم، ويَسْـتَخْرِجونَ منـه، بالتهديـد إنْ لَـزِمَ الأمْـرُ والوعيـد، منـه أمـوال أهلـه... كـدخيلٍ لا يسـتحق الانتسـاب لتلـك العشـيرة المُـتَـجَـبِّـرَة!

فـي الـتِّـــيـــه

بعـد انتــقالنا إلـى بيـروت، ألحــقني أهلـي بمدرسـةٍ إنجيليـة قريبـة مـن منزلنـا المسـتأجر فـي منطقـة الحازميـة.[1] شـكّل هـذا الانتقـال تَحَـوُّلًا لـي إذ فـقدتُ علـى إثـره كل العلاقـات التـي كُنْـتُ نجحـتُ فـي تكوينهـا أخيـرًا.

طالمـا ركنـتُ إلـى راحـة الإلحـاد طـول حياتـي، ولـم يكـن لـي ارتبـاط بـأي شـعائر تَخُـصُّ دينًـا أو مَذْهبًـا مـا، لكـن يبـدو أنـي مُـقَيَّدٌ فـي السـجلات الحكوميـة بعكـس ذلـك، فقـد اكتشـفتُ فـي مدرسـتي الجديـدة أنـي «شـيعي»... وفـي بلـدي يُحشـر المـرء فـي خانـة ديانتـه ومذهبـه حَشْـرًا لا يسـتطيع التَّــمَلُّصَ منـه.
وعلـى إثـر ذلـك، تعرضـتُ لمواقـف طائفيـةٍ بامتيـاز، دون فعـل مُسـبقٍ مِنـي. لـذا، بمـرور الوقـت، صِـرتُ فـي هـذا المحيـط الجديـد كالمَسْـخِ المتملـص مـن مرجعيتـه؛ وعنـد بعـض النـاس أنْ تكـون طائِفِيًّـا خيـر مِـن أن تكـون لا شـيء!
ولِكَـم السـخرية الـذي لقيتـه بسـبب لهجتـي ــ حتـى كِـدت أن أُسَـمَّى

---

(١) حَيٌّ سَكَنِيٌّ إلى الشَّرْقِ من بَيْروت.

«الريفي ابن بعلبك»... غَيَّرْتُ لهجتي تدريجيًّا وجعلتها أكثر «بياضًا» لأخرج من الصورة النمطية المنطبعة في أذهانهم عن مدى تخلف العشائر وتأخرهم. ومن العجب أني كنتُ أُعتبر «مُتَمَدِّنًا» في مدرستي القديمة في بعلبك، كشخصٍ يُخالف هيئة أقرانه بثيابه المميزة وسلوكه.

في مدرستي الجديدة، عرفتُ زياد رحباني. كانت البداية حين سمعت أحدهم يُدَنْدِنُ بأغنيةٍ له... جذبتني الكلماتُ التي تَجَسَّدَتْ برسم خيال شابٍّ يافعٍ مثلي، ولحنها المألوف. رجعتُ لأُختي القريبة من سِني، وتعرفنا عليه أكثر سويًّا، حتّى صِرْنا نحفظ جُمَلًا كاملةً من مسرحياته وَنُرَدِّدها بصوت عال في المنزل. نشأتْ صداقة بيني وبين مايكل الذي كانَ من المغنين بزياد أيضًا. كان مايكل مَلاذي الفني وسط كَمٍّ كبير من الغَمْزِ واللمز ضدي. أدْخَلْنا زياد الرحباني في كلامنا حتى بالنكات، صرنا نتبارى في حفظ أغانيه ومسرحياته، وانضم إلينا آخرون، وأخريات.

وشيئًا فشيئًا اطرد اندماجي في جَوِّ المحيطين بي. لا أنكر ما كان لمايكل بسبب من شخصيته القوية ومن ثقة الآخرين به في تسهيل هذا الاندماج وفي انتقال شيء من الثقة بالنفس إليَّ على أن هذا جميعًا لم يخلّصني تمامًا من خجلي وتحفظي الفطريين. إلى أن طرقنا باب الحشيش سويًّا وأحببناه سويًّا!

عَمَّق الحشيش صداقتنا بالشلة وزادت معه ثقتي بنفسي، ولو تكلمنا بواقعية فلم يكن أنا من تعززتْ ثقته بل ذاك الهائم تحت تأثير الحشيش.

ذلك ما دفعني إلى استخدامه كوسيلةٍ للتقرب إليهم وتحصيل إعجابهم، فكنتُ المتكفل بالإتيان به مِن مصادره التي أعرفها جيدًا. ووجدتُ كم أنَّ هذه المادة قادرة على أن تكون وسيلة للتجاذب بين الناس، حتى بين أشخاص لا يربطهم الكثير ببعضهم البعض.

رغم ذلك، لم أعد أعرف مَنْ منهم صديقي حَقًّا ومَن يريد مرافقتي لمَجّانية الحشيش.

لمّا وعيتُ سياسة تبادل المصالح بيننا تلك، تعلمتُ كيف أستغل هذا الصنف من الزملاء، ولم أحاول قط التخفيف من حدة هذا النمط من التعامل. وجدتني أفعل ذلك مُتَعَجِّبًا من نفسي، فلست ذاك الشخص الخجول الذي يعطي لا لشيء إلا للاعتراف بوجوده فقط.

تشعبنا في الكليات المختلفة بعد وصولنا للمرحلة الجامعية ــ منهم مَنْ ذَهَبَ لدراسة إدارة الأعمال وبعضهم لعلوم التكنولوجيا وفريق آخر سافر خارج لبنان.

اتجهت أنا الى الهندسة المعمارية. بعيدًا عن تخصصات بقية الشلة، لكن يبقى الود القديم الذي يجمع كل مجموعة فتيان التقوا حول مائدة صغيرة ليلفوا سجائرهم ويُخَصِّبوها بالحشيش!

في يوم منحوس، أوْقَفَ دَرَكِيٌّ أحد أفراد شلتنا في طريق بعد منتصف الليل وبحوزته حشيش ليست بالقليلة. بعد أيام مِن

توقيفـه فوجئنـا باتصـال مـن مخـفر حبيـش بثلاثـة مِنـا للتحقيـق. قـررت عـدم الذهـاب... حتـى يتَّضِـحَ لـي مـا سـيكون عليـه موقـف الآخريــن.

وبالفعـل حصـل مـا كنـت خائفًـا منـه: قـال أحدهـم خـلال الاسـتجواب أنـي مَـن أعطيتـه مـرة سـيجارة حشـيش، وتذاكـى آخـر فـقال عنـي: لـم يكـن هـو المُعْطـي، ولكنـا كنـا نُدخـن سـويًّا!

هُـــرمـــــــون!

فـي ذهـولٍ، كأنّـي تحـت تأثيـر الحشـيش، ألصقنـي الشُـرَطي بالحائـط، لـم أكـن أَعْبـأ حيـن طلـب مِنِّـي خلـع ثيابـي سـوى بالحالـة التـي سـيظهر عليهـا عُضْـوي! ليـس بإرادتـي أنْ يَنْصَـبَّ تركيـزي فـي هـذا الموقـف علـى هـذا الجـزء مـن جسـدي خصوصًـا، ولعلـه بسـبب كلام صديقتـي التـي تركتُهـا للتـو، فقـد كانـت تَشْـرَحُ لـي ونحـن ننفـث دخـان السـيجارة فـي وجـوه بَعْضِنـا عـن علاقـة إفـراز الأدرينالیـن بتَشَـنُّجِ عضـلات الجسـم. فهمـت الآن مـا لـم أفهمـه حينهـا!

لـذا وقفـتُ بطريقـةٍ لا تُظهرنـي مُواجِهًـا لهـم؛ حتـى جعلنـي ذلـك الخبيـث الدَّرَكِـي أُقَـرْفِص، ليتأكـد أنـي لا أخبـئ شـيئًا. خِفْـتُ أن يكـون أحـدًا مِـن السـجناء العامليـن فـي المـكان قـد انتبـه لتلـك الهيئـة التـي حاوَلْـتُ إخفاءهـا، وأن يتحـول الأمـر لِـنُكتةٍ يتناقلونهـا، ولربمـا وصـل لأسـماع أولئـك الذيـن سأتشـاطر معهـم الزنزانـة لاحقًـا. ضـاع جهـدي هبـاءً!

فـلِعِلْمِي بذلـك المصيـر الـذي قـد أؤول إليـه... وهـو بقائـي فـي السـجن لأيـام، بـادرت لأسـابيع خلـت، إلـى إطـلاق شـعر رأسـي لَعَـلَّ

هـذه الكتلـة مـن الشـعر تـواري بعضًـا مـن الملامِـح الطفوليـة التـي اتَّسـمتُ بهـا، والتـي لا تُناسـب المُعَـدَّلات المرتفعـة مـن هرمـون التستوسـتيرون، علـى حـد قـول صديقتـي، الموجـودة بيـن نـزلاء السـجن؛ ولكـن زاد الطِّيـن بِـلَّة حيـن أمَـرَ الشُّـرَطي بإزالـة شـعر رأسـي ولحيتـي تمامًـا. حاولـتُ أن أرشـي زميلـي الحـلاق الجديـد... ليخـففها فقـط، لكنـه لـم يقبـل. انكشـف وجهـي طـفوليًّـا وبريـئًا، وخسـرتُ خَـطَّ دفـاعٍ كنـت أُعَـوِّل عليـه لـخَلْقِ صـورةِ لنفسـي أكثـر صلابـةً خـلال أيـام سـجني الأولـى.

تَمَلَّـكَنِي الخـوف مِـن شـيءٍ آخـر أيضًـا، هـو احتمـال ملاحظتهـم قِلَّـة شَـعر صـدري وظهـري... وقـد أكملـتُ إزالتهـم قبـل فـترةٍ وجيـزة.
وحيـث إنَّ كثـرة الشَّـعر فـي جِسـم الرجـل أمـارةً علـى فاعلية هُـرمون الذكـورة لديـه، كمـا قالـتْ لـي صديقـتي يومًـا، لا بُـدَّ سـيطرحون تسـاؤلاتٍ حـول هويتـي الجنسـية ومـدى رجولتـي!

لا أذكر أين سـمعتُ تلك المقولة «الإنسان وَلِيد بيئـته»...
فأنـا لـم أكـن بِدعًـا حيـن فعلـتُ ذلـك، كان السـبب أصدقائـي الذيـن لقيتهـم فـي بيـروت... بعـد أنِ انتـقلتُ مِـن مَـدرستي الأولـى، فقـد سـخروا مـن شـكل الشـعر علـى كتـفي وصـدري، والـذي يُشْـبِهُ الزَّغَب؛ لذلـك لـم أتـردد فـي إزالتـه كمـا يفعلـون.

بالطبـع كنـت أتـرك القليـل حتـى لا أثيـر حَـفِـيظة أهـل بلدتـي. أصدقائـي الجُـدُد لهـم عـادات وسـلوكيات مختلفـة عـن أصدقائـي القدامـى الذيـن لـم يكونـوا ليتقبلـوا شـيئًا كهـذا.

وَدَدْتُ أن أبدو أكثر صلابةً مما ظهرتُ عليه في لحظاتي الأولى في السجن، لكنَّ وقوفي عاريًا أمامهم وما تلاه... أخار مِن عَزْمي، لأواجه هشاشتي وضعفي. بقيَ لي أنْ أُعَوِّل على طولي وضخامة جُثَّتي... فكرتُ أنهما سيُعْطِيَانِ انطباعًا عني بالقوة ــ طبعًا شَرْط أن أحافظ على عبوسي وجِدِّيَّتي، وتجنب ارتداء نظَّارتي التي ستجعلني كطالبٍ جامعيٍّ مُستكين.

كان مأمور السجن يعلم بقدومي؛ فأثناء تَوْقِيفي في مركز مكافحة المخدرات، اتصلتْ أختي في زحلة بأحد رجال الأمن النافذين، ليضمن عدم تعرضي لمضايقاتٍ وقت مُكُوثي في السجن. حاول المأمور استغلال الموقف لأُخْبِرَهُ بمُوَزِّعِي المخدرات في المنطقة... مُقابل أن أبقى عنده حتى تُحلّ قضيتي.

لم آبه لكلامه؛ فقد كنتُ أعرف أنَّ العشيرة التي تنتمي إليها أُمِّي هي الأكثر حضورًا في السجون، بسبب انخراطها الواسع في تجارة المخدرات، وركَنْتُ إلى يقين أنها ستَضْمن لي الحماية، بما أنَّ الجميع يهابها لما اشْتُهِرَ عن أبنائها مِن كثرة مشاكلهم وعنفهم دون رادع. وكنت بالفعل قد تعرفتُ على بعضهم فترة مراهقتي، عن طريق ابن خالي الذي وضعني على طريقهم لشراء الحشيش بادئ الأمر، ثم جَذَبَتْني قصصهم ومغامراتهم التي تذكرني بأفلام المافيا.

بالنسبة لهذه العائلة، يعتبر السجن جزءًا طبيعيًّا مِن دَوْرَةِ حياة أيّ شخصٍ فيها... فتجارة المخدرات وزراعتها عملٌ مُتَوَارث وتقليد لا يشوبه تردد. لذلك لا يتعرض السجين بعد خروجه إلى مَعَرَّةٍ

أو نَبْـذٍ مـن مُحيطـه الاجتماعـي، كمـا يحصـل مـع أبنـاء العائـلات الأخـرى والتـي ينتمـي أبـي إلـى إحداهـا.

مِثَـالـِيَّةٌ مَـهْـتُـوكَـة!

أتـى أحـد شـباب العائلـة وأخذنـي معـه. كان أسـمر اللـون، يرتدي شـورط سـباحة وقميصًـا مُزَرْكَشًـا، وبتسـريحة شـعر الفتيـان؛ لكـنَّ كل ذلـك لـم يُخَفِّـف مِـن قَسْـوَةِ وجهـه وملامحـه الإجراميـة.

سـألني عـن الفَـخْذِ الـذي تنتمـي لـه أُمِّـي وعـن أسـماء أخوالـي. كان يعـرف واحـدًا منهـم وتربطـه صداقـة بأحـد أبنائـه. استـفسر أيضًـا عـن سـبب وجـودي فـي السـجن، لـم أكـن أعـرف بمـاذا أجيـب؛ فتهمتـي قانونـيًّا هـي «تجـارة المخـدرات» بينمـا تهمتي فـي الواقع تُـقْـتَصَرُ على إعطائـي أحـد الأشـخاص سـيجارة حشـيش ليـس إلا، لكنـي تغيَّـبْتُ عـن جلسـة محاكمتـي... مـا خـوّل لهـم إصـدار مذكـرة توقيفـي تحـت الخانـة القُصـوى مِـن جرائـم المخـدرات.
طُلِـبَ مِنِّـي الجلـوس علـى أحـد الأسِـرَّة الفارغـة فـي الزنزانـة كـي أرتـاح...

كان هنـاك شـاب يجلـس علـى السـرير بمواجـهتي يُـفَـلْـفِـش بهاتـفه لا مُبَالِـيًا. لـم أعرفـه فـي البدايـة بسـبب لحيتـه، لكـن عندما سـمعتُ صوته اتضحـت لـي هويتـه، كان معـي فـي نفـس المدرسـة التـي ارتَـدْتُـها حتى

الصف التاسع خارج البلدة. دائمًا ما كان غريب الأطوار وعشوائي التصرفات.

المفارقة أنَّ صداقةً جمعتني به في المدرسة بعد أن ضربني مجموعة من الصبيان الذين كانوا أكبر مِني سِنًّا، ويسكنون في نفس حي المدرسة. وهو الوحيد الذي كان في صفي من بلدتي. والمُضْحِكُ أنه بدأ بالتَّنَمُّرِ عليَّ هو أيضًا بعد عدة أشهر، وصرتُ خائفًا منه أكثر مِن خوفي منهم.

عزز خوفي منه نمط سلوكياته الانتقامية والتخريبية في المدرسة؛ أذكر مرةً انه قام بتمزيق كرسِيّ الناظر شخصيًّا، بخنجرٍ أتى به من منزله. وأخرى فوجئ الجميع بصورةٍ رسمها على حائط الصف، وكانت لفتاةٍ ناضجةٍ يسيل الدم على فخذيها. وبالنسبة لتلاميذَ في الصف السادس... تملكتنا الدهشة الممزوجة بالرعب مما أثارته فينا عشوائية رسمه وفقاعة لون الدم؛ ولكنه لم يلبث أنْ طُرد من المدرسة بعد تلك الحادثة.

هذا هو علاء... بعد كل تلك السنين يجلس أمامي في مفارقةٍ أخرى أعجب. بالنسبة لموازين أبناء عشيرة أمي، يمثل علاء النموذج المثالي لما ينبغي أنْ تَمُرَّ به حياة أفرادها، بدايةً باصطدامهم مع الحياة المتحضرة في البلدة، إلى عملهم في المخدرات.
متنقلين بين الجرود التي وُلدوا فيها وبين بلدات البقاع الشمالي، وبين بيروت؛ بيروت التي سرعان ما تُحدد مصيرهم، إما بنبذها لهم فيعودوا فارِّين إلى جرود أهلهم، وإما سجناء يُعيدون خلق مجتمعاتهم بأشكالٍ جديدة.

تـرك عـلاء المدرسـة ليعمـل فـي زراعـة الحشـيش، حيـث بـدأ يـبيعه في المنطقـة والجـوار مـع أولاد عمـه. كان هـذا قبـل أن يُفتـح لـه مجـال أَرحـب بيـن طـلاب جامعـة سـيدة اللوزيـة الأغنيـاء، حيـث ضاعفـوا لـه الأمـوال التـي كان يجنيهـا مـن البقـاع.

اسـتغلَّ وقـت أنْ كان الأمـن الداخلـي لا يُـفتش النسـاء، لينقـل الكوكايين والحشـيش إلـى بيـروت فـي ثيـاب فـتاةٍ مـن أقاربـه. مـع توسـع أعمالـه انتــقل للعيـش فـي حـي النبـع البيروتـي، فَيَتَيَسَّـر لـه أن يُلَبّـي سـريعًا رغبـات أفـراد الشِّـلَّــة الأغنيـاء في بــرمانا.

خـلال سـنتين صـدر بحقّـه عـدد مـن مذكّـرات التوقيـف، واضطـر للعودة إلـى البلـدة مُرغَمًـا. وكآخريـن مـن عائلتـه، قـام بنقـل منزلـه إلـى «حـي المطلوبيـن» القابـع علـى تَـلَّــةٍ مرتفعـةٍ مُطِلَّـةٍ علـى البلـدة، يسـتطيع منهـا رؤيـة جميـع الطرقـات الرئيسـية المؤديـة إليهـا. لكـن لـم يمـض الكثيـر حتـى استــفاق علـى صـوتِ جنـودٍ يدخلـون الحـي، حـاول الفِـرار مـن الجهـة الخلفيـة لمنزلـه... إلا أنـه لفـت الأنظـار فلاحقـوه حتى تعــثَّر فكُسـرتْ قدمـه. بعـد دقائـق فهـم أنـه لـم يكـن المقصـود، وإنمـا أتـوا للقبـض علـى شـخصٍ آخـر. ولكـن الأوان قـد فـات.

حيـن قدمـتُ السـجن، كان عـلاء يقضـي سـنته الثانيـة. فهمـتُ منـه أنـه لـم تعـد تُشـغله حياتـه بالخـارج كمـا كان الحـال فـي البدايـة. حـاول أنْ ينقـل إلـيَّ تلـك اللامبـالاة والعَدَمِيَّـة التـي تــنتابه، ليؤكـد لـي أنَّ هـذا مـا سأشـعر بـه مـع مـرور وقـت السـجن البطـيء. كثـرة كلامـه هـذا أثـارت هلعـي... ونجـح فـي أذِيَّـتي نفسـيًّا. لـم أكـن قـادرًا علـى فَصلـه عـن ماضيـه، خاصَّـةً أنَّ سـلوكياته بقيـتْ معـي متناقضـة، فـحينًا يُعاملني كصديـقٍ مُـقَــرَّب، وحينًـا يسـخر مِنـي. مُصاهرتـه للشَّـاويش لـم تجعـل لـه أيّ رادعٍ لمـا يفعلـه، وخصوصًـا مـع الـزُوَّار الجُـدُد.

وبسبب سلوكياته هذه المستبيحة معنويًّا للزنزانة، كان يخافه المساجين بشكلٍ عام. لكن عِوَضًا عن سعادتي كوني أعرفه منذ الصغر، ما كان يجعلني في الظاهر أحتمي به، كان يتناقص شعوري بذلك حين أكون جالسًا معه، بل يتملكني الخوف مِن أن أصبح بأيِّ لحظةٍ واحدًا مِن المساجين الذين يَتَنَمَّر عليهم!
هذا هو النموذج المثالي للعشيرة!

تُــرْبَــةٌ بُــور!

الغرفـة مسـتطيلة الشـكل، تزدحـم بحوالـي ٢٥ شـخصًا، ثمانيـة فقـط مَـنْ ينامـون علـى الأسِـرَّة، والباقـي يفترشـون الأرض. معظـم السـجناء مِـن بلدتـي مـا عـدا خمسـة مِـن مناطـق مختلفـة، وليـس بمسـتغربٍ طبعًـا أن يكـون نصـف العـدد مِـن عشـيرة أمـي.

تذكـرتُ أنـي أعـرف الشـاب الـذي رافقنـي مِـن مكتـب المأمـور إلـى الزنزانـة، فاسـمه يُـلازم كل مشـكلةٍ جسـيمةٍ تحـدث فـي أنحـاء البلـدة، و«المشـكل عنـده مثـل شـربة المـي» كمـا تـقول والدتـي. وكذلـك أخـوه المسـجون معنـا صاحـب الصيـت الـذي لا يقـل سـوءًا عنـه. هـذا الصيـت جعلهمـا يتبـوَّآن المكانـة المُهابـة فـي السـجن، حتـى صار يُطـلق عليهما "الشّاويــش والعَرِّيف"

دخـل «الشّـاويش» السـجن بعـد إدانتـه بجريمـة قــتل، إثـر اشـتباكٍ حصـل بينـه وبيـن أفـراد عشـيرةٍ أُخـرى، وقـد مضـى مِـن حُكمـه سـت سـنوات فــقط، والبقيـة تأتـي.
أمـا «العَرِّيـف» فقـد دخـل مؤخـرًا... ولكـن بطريقـةٍ أكثـر مَهانـة، إذ سلَّمَـتْه عائلتـه حَـقْنًا للدمـاء، إثـر مقتـل شـابٍّ فـي اشـتباكٍ مـع عشـيرةٍ

أخـرى عـن طريـق الخطـأ، وهـو يُؤمِّـل أن يخـرج فـي حـال تمَّـتْ مُصالحـة بينهمـا.

ومـع ذلـك كان العَرِّيـف أكثـر إثـارةً للخـوف بالنسـبة لـي، فقـد كان الـذِّراع التنفيـذي لأخيـه فـي الغرفـة، ولـم يكـن يتوانـى عـن التصـرف بحقـارةٍ مطلقـة مـع المسـاجين الآخريـن. أمـا أنـا فـكان يَخُصُّـني بنصائحـه مـن وقـتٍ لآخـر علـى سـبيلٍ مُريـب، كأن ينهانـي أن أتحـدث مـع أفـراد العائـلات الأخـرى، أو أنْ أحلـق لِحْيَتـي، أو أرتـدي نظارتـي، ومِـن المُحَرَّمـات أن أشـتري أيّ شـيءٍ مِـن أحـد غيـره. بالإضافـة إلـى مـا كان يسـتدرجه مـن أموالـي مُقابـل إطعامـي، وأحيانًـا مقابـل مسـاحةٍ أزيـد علـى الأرض للنـوم المريـح.
لـم يَمْسَسْـني بسـوءٍ ظاهـرًا ولكنـه بَطَّـن لـي التهديـد إن خرجـتُ عـن طاعتـه. وكذلـك أصبحـتُ تحـت سـطوته نفسـيًّا وماديًّـا!

رغـم انقطاعـي عـن بلدتـي منـذ أكثـر مـن عشـر سـنوات، لـم أقطـع تواصلـي مـع المقربيـن مـن عائلتـي. ولـم أفقـد شغـفي بتَصَيُّـدِ أي خبـر يَمُـتُّ لأولئـك البلطجيـة مِـن عشـيرة أمـي.
لا أُنكـر أنـي دائمًـا كنـت أُعجـب بهـم فـي بدايـة شَـبابي، وقـد شـكَّلوا جـزءًا مِـن شـخصيتي، سـلبيًّا وليـس إيجابيًّـا، دون أنْ أحتـكَّ بهـم أو أعمـل عملهـم، ولكـن بمجـرد سـماع قصصهـم التـي كانـت تشـبه بالنسـبة لـي حكايـات أبطـال السـينما...

مَـنْـبُـوذٌ وإنْ كَـان..

لـم أتـأقـلـم قَـطّ مـع المسـجونين معـي في نفـس الغرفـة، كنت متيـقنًا مِـن بُغضهـم لـي وتوجسـهم منـي؛ لـذا لـم يُـفَوِّتوا فرصـةً لإذلالـي خفية، دون أنْ يتركـوا أثـرًا يُسائـلون به.

ليـس لـي أن أسـتغرب هـذا أو أحـاول إصلاحـه ولـو قليـلا، فمـع أنَّ غالبيتهـم مِـن أقـارب أمـي، إلا أنهـم بقَـدْرٍ بشـعٍ يبغضـون عائلـة أبـي، فهـي مـع صِغَـرِ تمددهـا فـي البلـدة، تُـعتبر صاحبـة امتيـازاتٍ سياسـيةٍ كبيـرة، وقـد اسـتفادت مـن صعـود نـفوذ «حـزب اللـه» فـي البقـاع الشـمالي خـلال العقـود الماضيـة، لـتُـثبت وجودهـا... ضد ظلم العشـائر الطويـل.

بينمـا هـم فـي عِـداد المُهَـمَّشين جَـرّاءَ مخالفتهـم للقانـون وأعمالهم في الممنوعـات، تَنْعَـم عائلـة أبـي بالشـرعية التـي يُـأمنها الغطـاء السياسـي مـع وظائفهـم فـي الدولـة.

زاد سـخطهم لمـا رأوا السـرعة فـي تحديـد جـلسة مُسائـلتي خـلال العطلـة القضائيـة، بينمـا يضطـرون هـم للانتظـار لـفتراتٍ طويلـةٍ دون محاكمـات.

فمـع شِـدَّةِ المِـراس التـي يبـدون عليهـا.. إلا أنهـم لَشَـدَّ مـا يكتئبـون

ويُضمـرون الغضـب إذا مَـرَّتْ مِـن أمـام أعينهـم امتيـازات ليـس لهـم فيهـا رَجَـاء!

كان لذلـك أثـره علـى أرض الواقـع؛ فبعـد سـنواتٍ مِـن بِـناء أبـي وصهـري بيتًـا كبيـرًا فـي جـرود بعلبـك ـ الهرمـل، فوجـئوا باقتحامـه مِـن أشـخاصٍ مجهوليـن، سـرقوا وخربـوا مـا امتـاز بـه المنـزل مِـن ديكـوراتٍ وأثـاثٍ لـم يعتـادوا علـى مثلـه، فبيوتهـم لـم تُـفرش إلا بأثـاثٍ متواضـع لُـزوم النـوم والجلـوس فحسـب. وتكـرر ذلـك الحـادث مـع آخريـن مـن أفـراد عائـلات البلدة الأصليِّـين.

بَـرَّرَ لـي أبـي يومهـا مـا حـدث بـأن السـكان لـم يعتـادوا أن يُـقيم أحـدٌ بيتـه أعلـى تلـك الأراضـي المرتفعـة، خاصـةً إذا ظهـر المنـزل بمظهـر المتعالـي علـى أصحـاب البيـوت المنحـدرة المتـقشفة فـي الأسـفل هنـاك!

وأنـا فـي السـجن تذكَّـرتُ تبريـر أبـي الـذي لـم يعـد مقنعًـا كثيـرًا. صـار اقـتحامهم وتخريبهـم بالنسـبة لـي رسـالةً موجهـة ضِدنـا بشـكلٍ مباشـر، وسـيكون هنالـك مثلهـا فـي المسـتقبل. كمـا أنـه لا يُمكـن فصلهـا عـن السـياق السياسـي والاجتماعـي لعلاقـة العشـائر بعائـلات البلـدة الأكثـر تحضـرًا. وهـي علامـةٌ علـى حِـقدٍ قديـم ورغبـةٍ بـالأذى لـن أسـتغرب إن حصـل مثلهـا معـي فـي السـجن، بعـد تَـكَـثُّـفِ تلـك الأحقـاد فـي رؤوسـهم.

كانـت لجغرافيـا الزنزانـة بُعْـدًا اجتماعِيًّـا... أو بالأحـرى طبقـيًّا؛ عـزز تلـك الكراهيـة أكثـر، فلسـان حالهـم أنهـم اسـتراحوا مـن العائـلات صاحبـة النفـوذ فـي الخـارج، فلـم يبـق إلا مشـاركتهم لنـا فـي الزنزانـة!

فقـد كانـت الغرفـة مُقَسَّـمَةً إلـى ثلاثـة أقسـام افـتراضية. المدخـل

مـن ناحيـة البـاب: ينـام فيـه الشـاويش والعريـف وبطانتهـم وأصحـاب مائدتهـم، وهـي بمثابـة الديـوان الـذي يسـتقبل فيـه الضيـوف الجُـدد أيضـا!

تَمَيَّـز المدخـل بهـواءٍ نظيـف إلـى حـدٍّ كبيـر بسـبب قُربـه مـن البـاب، وبمراوحـه الكثيـرة وإطلالـةٍ علـى تـلفازٍ فـي غرفـة الحـارس القريبـة.

ثـم وسـط الغرفـة حيـث يوجـد النسـبة الأكبـر مـن السـجناء غيـر المحسـوبين مـن جهـةٍ مـا علـى الشـاويش ولا يأكلـون علـى مائدتـه، لكـن يمكـن أن يكونـوا مِـن أبنـاء العشـيرة.

أمـا المُؤخـرة! كمـا كانـوا يدعونهـا: فهـي الأقـرب إلـى الحمـام ومـكان تنظيـف الصحـون. وكلمـا اقـتربتَ إلـى المؤخـرة يعنـي أنَّ احتمـال خروجـك مـن الزنزانـة أصبـح أقـرب زمنيًّـا، أو أنَّ مرتبتك ضمن المسـاجين أصبحـت أدنـى، كمـا هـو الحـال مـع الخـادم والطبـاخ.

وبمـا أنـي انتقلـت للنـوم فـي المدخـل الأعلـى مـن الزنزانـة... لأنـي صِـرت محسـوبًا علـى الشـاويش وآكل علـى سـفرته، دَفَـعْتُ بـلا قصـدٍ منّـي المسـاجين الذيـن كانـوا فـي الوسـط... نحـو الحمّـام!

بَيْضاء في الأصْل

خِـــــــذلان

ربمـا حالـة «الخـادم» كانـت الأسـوأ بامتيـاز. كان سُــورِيًّا مـن منطــقةٍ قريبـةٍ مـن الجـولان. يعمـل مـن الصبـاح حتـى منتصـف الليل دون توقــفٍ مقابـل دخانـه وطعامـه فقـط!
أخبرنـي أنـه سُـجِنَ لــسرقته هاتــفًا محمـولًا، ورغـم أنـه قَــرَّر إعادتـه لصاحبـه بعـد تأنيـب ضميـره، إلا أنَّ الأخيـر غَــدر بـه وسَــلَّمه للــدَّرَكي. لـم يكـن يعـرف أحـدًا فـي لبنـان ولا يملـك أيَّ نقـود ليعيـش بهـا. هيئــته كانـت تُــثير الأسـى، خاصـةً أنـي لـم أكـن أراه يرتـاح سـوى آخـر الليـل.

أمـا عملـه فـكان التنظيـف وغسـل الأطبـاء ومسـح الأرض عدة مـرات خلال النهـار، بالإضافــة لغســل ثيــاب الشــاويش وجماعتــه. ربمــا كان العمــل الأقسـى مـن كل ذلـك، حمـل أغـراض الشـاويش وجماعتـه مـن الدُّكّــانة فـي الطابـق السـفلي إلـى الغرفـة، وكانـت تضـم غالونـات الميـاه وأشـوال الحبـوب الضخمـة والمعلبـات التـي كانـت تُوضـع جميعهـا تحـت الأسِـرَّة وعلـى الرفـوف، بالإضافـة إلـى اللحـوم والأطعمـة المجمـدة التـي كانـت تُحفـظ فـي الثلاجـات الموجـودة فـي الزنزانـة.
رغـم أنـه ليـس مثلـي... لبنانيـا، مـن منطقـة بعلبـك ـ الهرمـل، ومـن أبنـاء العشـائر... إلا أنـه شـابهني فـي قِلَّـة الحيلـة! وخـذلان المصيـر!

الطباخ هو الآخر يُستغلُّ، لكن بِقَدْرٍ يحسده عليه الخادم. أبو علي. وظيفته يوميًّا إطعام أكثر مِن نصف السجناء، ثلاث وجبات في اليوم.

لم أتكلم معه أبدًا بسبب انشغاله أغلب الوقت، وغضبه الدائم لكثرة الوجبات التي عليه تحضيرها، وأكبرها مائدة الشاويش التي كنت أتناول الطعام عليها، وتضم ٧ أشخاص غيري.

كان يطبخ الأكلات اللبنانية المعتادة على الغداء، وجميعها يَدْخُلُها اللحم بكمياتٍ كبيرة. كما كان عليه تحضير ساندويشات في الليل، وترويقة لبنانية في الصباح (لبنة، زعتر ومكدوس...)

وبالإضافة لمجموعة «الشاويش»، كان يُطعم مجموعةً أخرى مقابل علبة مالبورو أحمر، ويستلمها عنه الشاويش إلى حين!

انْحِـدَارٌ مُتَـلَـكِّـئ

كانـت أحوالـي مستـقرةً لأسـبوعٍ فقـط بعـد سـجني، حتـى انضـمَّ إلينـا جلال وهـو شـابٌّ مـن عائلـة أمـي، أصلـه كُـرْدِيّ حتـى تَبَنّـاه قريـبٌ لأمـي بعـد أن عمـل فتـرة فـي مقهاه، ولأمـي فضلُ إتمـام إجـراءات تَـبَـنِّيه وتجنيسـه ليصير مواطنًـا لبنانيًّـا مُنتميًـا بالاسـم لإحـدى أعنـف عشـائر بعلبـك ــ الهرمل.

العجيـب أنَّ جـلال سُـجن بسـبب اشـتراكه فـي الاشـتباك نفسـه الـذي قُـبض علـى العريـف فيـه. لكـنَّ جـلال أتـى مُصابًـا بطلـقٍ نـاري فـي قدمـه، ولا يسـير دون معيـن. أقـحم نفسـه ليَظْهَـرَ ذا شـأنٍ أمـام زملائـه، ومُدافعًـا عـن أحـد زعمـاء العشـيرة، لكـنَّ فَـأْلَه قـد خـاب، أُصيـب ولـم يذكـره أحـد حتّـى وصـل الجيـش.

بعـد أيـامٍ مِـن وصولـه تَلَـقّى جـلال كلامًـا قاسـيًا مـن «العريـف»، يؤنبـه فيـه علـى تدخلـه وإقحـام نفسـه فيمـا لا دخـل لـه فيـه. بعدهـا آثـر جـلال أن ينتقـل إلـى زنزانـة أخـرى بعـد أن شـعر أنَّ وجـوده ليـس مرغوبًـا فيـه، عكس مـا كان يؤمـل ويتوقـع.

بسـبب مـا حـدث مـع جـلال، بلـغ مسـتوى قلـقي أضعـاف مـا كان عليـه أول دخولـي. وصـار أَتْـفَهَ شـيء يحصـل فـي الزنزانـة يُـثير فـزعي، وإعمـال

الوساوس والكوابيس في رأسي. تَمَثَّلْتُ نفسي مكان جلال، وحيدًا منبوذًا من المكان الذي قضى فيه سنوات طويلة. تخوَّفتُ مثله أنْ يتخلى عني الجميع وأُصبح فريسةً للاضطهاد بعد انتهاء فترة استضافتي، خاصةً أني بعد مرور أسبوع مِن دخولي لم أعد متأكدًا من خروجي قريبًا، على نقيض ما كانت تقوله لي أختي على الهاتف.

استطاع منطق الزنزانة أن يبتلعني، ويقنعني أن التهمة التي دخلت بها ستبقيني سنوات في السجن كما حصل مع مساجين آخرين قبلي.

ما هَدَّأْتُ به روعي ساعتئذ في مقارنتي بهم، أن سِجلّي نظيف، وتبقى المسألة مجرد تعاطي للمخدرات بين الأصدقاء، كما أكّد المحامي، فضلًا أنه قد مضى على تلك الحادثة أكثر من ٥ سنوات، وللتو تخرجتُ من الجامعة. كل ذلك أقدرنيَ قليلًا على دفع الأرق عني!

مع ذلك أسلمتُ نفسي رغمًا عني لرؤية الوجه الآخر من الحقيقة. نصبوا ليَ المحاكم وأقنعوني أني سأبقى، وأنَّ الدولة لا تُفَرِّق بين سيجارة حشيش وكيلو كوكايين. والدليل أن الكمائن دائمًا تتشدد مع أي شخصٍ من عائلتهم، كما أنّ قائد الجيش قال بالحرف في مجلسٍ خاصّ أن «كل واحد من هذه العائلة مطلوب للدولة» لكن حديثه هذا قد أتى بعد مقتل جنديين من الجيش في اشتباك إثر دخوله إلى مناطق في الجرود لإلقاء القبض على واحد منهم.
لم يكن تسلية نفسي من كلامهم سهلا إطلاقًا!

نُــزُوحٌ إلى الـعُــمْــق

لـم أكـن وحـدي المغتـرب عـن محيطـه فـي الزنزانـة، فقـد لاقيـتُ نمـاذج أُخـر شـعروا بالوحـدة مثلـي... مِـن أوزار الطائفيـة حينًـا، ومـن أثـقال الطَّبَـقِيَّة حينًـا!

كان منهـم سـجين مسـيحي طاعـن فـي السـن لـه مـن العمـر ٧٥ عامـا، ولـه فـي الغرفـة ٤ سـنوات مِـن عشـرين حُكـم عليـه بهـم بتهمـة القتـل العمـد.

لـم يكـن بإمكانـه البقـاء فـي غـرف المسـيحيين بسـبب وجـود أقـارب للقتيـل فيهـا، وقـد فُـرض وجـوده علـى المسـاجين الشـيعة مِـن قِبـل مأمـورٍ سـابق، رعايـةً لعمـره، ولا بديـل غيـر ذلـك.
بقـي فـي الغرفـة منـذ ذلـك الحيـن. لكـن المحيطيـن بـه، وليـس مـن بينهـم الشـاويش، زلـم يَمَلُّـوا مِـن مضايقتـه... ومِـن أهالـي البلـدة المتعصبيـن دينيًّـا وليـس مـن أبنـاء العشـائر!

رجـلٌ ينتظـر الموت ولا يؤمل أن يعيش خارج السـجن ثانيةً.
ضـاق السـجناء بـه وانغلـق الأفـق أمامـه، حتـى وجدتُـه ينعـزل

بمكانه عن الآخرين يسرح بخياله في الفراغ، ثم لا يلبث أن يبدأ حديثًا مع أشباحه بصوتٍ خافت وتعابيرَ مختزلة. لم يكن مختلفا بذلك عن أي مريض بالإنفصام.

في زاوية الغرفة، حيث خلق عالمه البديل الذي يهرب من بني الإنسان إليه، يفرغ فيه أحاديثه وتخيلاته ويحقق فيه رغباته المكبوتة من النحيب، وأحيانا الصراخ!
كانت محادثاته لا تمت بصلة إلى عمره وحاله، فمرةً يُواعد... وأخرى يسافر... وثالثةً يقتل!

كان مصدرًا لتسلية المساجين في الغرفة، كمسرحيةٍ تعمل لملأ أوقات الفراغ. وفي حال اقتربتُ لأكلمه، كان يتكلم في أي شيء يخطر على باله ثم ينصرف فجأةً لمحدِّثه من العالم الآخر. عدا مرةً أحب هو فيها أن يتكلم، حكى تفاصيل جريمته غير نادمٍ ولا مُشفق، اعترف بكَمِّ الحنق والغيظ الذي اعتراه حينها... ولو أنَّه عاد به الزمن لأفرغ بقية مخزن مسدسه كاملة في رأس الضحية.
قال أنه كان شجار مع جاره في شقته بسبب علو الصوت المنبعث من تلفازه في الليل، سحب مسدسه وذهب إليه في نوبة غضب، ارتفع صوتهما مع دَوِيّ تكسير زجاج. هُرِعَ نحو باب الشقة جارٌ مِن الطابق السفلي، أكثر مِن طرق الباب؛ وفي خِضَمِّ الغضب... فقد العجوز السيطرة على نفسه... صوّب المسدس نحو الباب وقتل «الضحية»!

أما النموذج الآخر لبشاعة الوضع الاجتماعي الذي أثقل الكواهل

فسجين مِن «فتح الإسلام»[1] كان أميرًا لـ«المبنى ب» في سجن رومية،[2] الذي ظل «إمارة» مستقلة يُمنع الأمن اللبناني من دخولها لسنوات.

السؤال البديهي طبعًا هو ما الذي يفعله في زنزانة أغلب مَن فيها شيعة ومن بعلبك ـ الهرمل؟ والجواب يُلتمس عند «الشاويش»، الذي كان مسجونًا يومًا ما في نفس المبنى «ب» تحت حماية «الأمير».

وكان على الشاويش أن يرد الجميل، فساعده لينتقل من سجن رومية التي أصبح فيها وضع المساجين الإسلاميين سيئًا جدًّا، إلى سجن زحلة[3] التي كان الوضع فيها أفضل من نواحٍ كثيرة. أمكنه تأمين الحماية له بما أنه شاويش الغرفة، ويمتلك الحظوة بين أقاربه وأتباعه.

كان سهلًا تحديد المعنِيِّ بالهمس المنتشر في الغرفة، استهجانًا من وجود شخص كهذا بينهم، خاصةً مِن المساجين الذين ينتمون لعائلات بلدتي الأصلية... ولا سيّما منهم أولئك الذين يريدون الإيحاء بأنهم مع حزب الله ويُعارضون وجود هؤلاء الأشخاص انطلاقًا من اعتباراتٍ طائفية.

رغم ذلك لم يكن «الشاويش» ليردعه شيء عن استكمال ما يفعله، خاصة أنَّ عشيرته لها علاقة سيئة مع حزب الله بشكلٍ

---

(١) فتح الإسلام: مجموعة «إسلاميَّة» مسلحة منشقة عن «فتح الانتفاضة» كان أول ظهورها في شباط ٢٠٠٦ في مخيم نهر البارد للاجئين الفلسطينيين الواقع شمال لبنان. في أيار ٢٠٠٧ اندلعت «حرب» بين المجموعة المذكورة والجيش اللبناني انتهت بالقضاء عليها.

(٢) رومية هو السجن المركزي في لبنان. أمّا «المبنى ب» فَجَناحُ السجنِ الذي كان مُخَصَّصًا لـ«الإسلاميين» والذي تميز خلال فترات طويلة بخروجه عن السَّيْطَرَةِ الأمْنيَّة.

(٣) زحلة: من كبرى مدن محافظة البقاع، وهي مركز القضاء المُسَمّى باسمها.

عـام، ورغـم وجـود بعـض المناصريـن للحـزب حتـى بيـن تجـار المخـدرات أنفسـهم!
ويُعـرف جيـدًا أن الحـزب يتعاطـى بحـذر مـع كل شـيء يتعلـق بالعشـائر، ويتركهـم يتصرفـون كمـا يشـاؤون... كأنهـم خـارج القانـون والمنطـق الـذي تعيـش باقـي عائـلات بعلبـك الهرمـل تحتـه.

توقفـتُ كثيـرًا عنـد حكايـة هـذا السـجين، فهـو لـم يتلـقَّ التعاليـم الدينيـة بشـكلٍ منهجـي إلا بعـد دخولـه السـجن، بمـا أنـه لـم يكـن إسـلاميًّا أصـلا بـل أقـرب إلـى قَبَضَايـات الشـوارع.
كان سـبب دخولـه، إدانتـه بجريمـة قـتل حصلـتْ خـلال اشـتباك بيـن شـباب منطقتـه مـع منطقـةٍ أخـرى فـي طرابلـس. ثـم بعـد قضائـه سـنتين فـي روميـة واختلاطـه بالسـجناء الإسـلاميين أصبـح عضـوًا فـي منظمـة «فتـح الإسـلام» التـي سـاعدتْه علـى الترقـي والحصـول علـى حظـوة ومكانـة عابـرة للجماعـات والمناطـق.
كان وضعـه جيـدًا مـن الناحيـة الماديـة، وحسـبما فهمـتُ مِـن مسـاجين آخريـن، أنـه جمّـع ثـروةً مِـن جمـع الخَـوّات خـلال الفتـرة التـي كان فيهـا أميـرًا لـ«المبنـى ب». كمـا امتلـك هاتفًـا حديثًـا، مـع العلـم أنَّ سـعر الهاتـف داخـل السـجن يبلـغ أضعـاف سـعره فـي الخـارج.
أغلبيـة وقتـه كان يمضيـه علـى هـذا الهاتـف، إمـا للتواصـل أو مشـاهدة الخطـب الدينيـة والاسـتماع للقـرآن. كمـا أنـه كان مُدمنًـا لمشـاهدة مقاطـع الفيديـو مـن نوعيـة «الرومانسـية الدينيـة» حيـث يكـون فـي الخلفيـة مَـن يُدنـدن بالآهـات البديلـة للموسـيقى المحرمـة بالطبـع، ومحتواهـا عـن مـوت الفجـاءة، أو الحـوادث التـي تُصَـوَّرُ بكاميـرات الشـوارع عـن الطفـل الـذي نجـا بأعجوبـةٍ مـن

أمـام القطـار! وربمـا فيديوهـات تصـور كيـف سـتكون نهايـة العالـم! تلـك النوعيـة التـي تُشـبع مناطـق الطاقـة البديلـة فيـه. فـكان يتأثـر حـد الرهبـة والأنيـن!

بشـكلٍ عـام كانـت علاقتـه غريبـة مـع المـواد البصريـة، فقـد بـدا فخـورًا وهـو يُرِينـي فيديـو تعذيبـه مـع أصدقائـه بعـد القبـض عليهـم فـي روميـة، ولا زلـت حائـرًا مِـن تلـك الخـفة والبهجـة اللتَيـن كان ينظـر بهمـا إلـى نفسـه فـي الشاشـة، كأنـه شـخص آخـر لا علاقـة لـه بـه!

بَيْضاء في الأصْل

أيـْـنَ الـمَــفَـــرّ؟!

مـع أنـي كنـتُ واعيًا لوجـودي فـي سجن زحلـة، وتحديـدًا فـي الطابـق الثانـي منـه، إلا أنَّ شـعورًا لـم يُفارقنـي طـوال فتـرة سـجني بأنـي فـي قبـو عميـق تحـت الأرض. قبـوٌ أشـبه بالعوالـم السـفلية التـي يُنــفى إليهـا المنبـوذون. هـذا مـا ألجأنـي إليـه الضيـق الممتـد فـي نفسـي!

حفّـز هـذا الشـعور بالضيـق تدهـور نظرتـي لنفسـي، وظنـي أن مكانتـي التـي حاولـت منـذ صغـري إثباتهـا للعالـم قـد تراجعـتْ لنقطـة الصفـر، انصهـرتُ وسـط أصحـاب الجنايـات والقتلـة.

عندمـا قُبـض علـيّ عنـد حاجـز ضهـر البيـدر،[1] تخيلـتُ نفسـي سـاقطًا فـي هـوةٍ ليـس لهـا قـرار، أوقعـتُ نفسـي بنجـاح تـام! هـوةٌ لا تجـري عليهـا قوانيــن الزمـان والمـكان، حيـث انعـدم احترامـي لأي أمـلٍ فـي كونـي إنسـانًا سـيكون لـه شـأن مـا!

كلّ مـا كنـتُ قـادرًا علـى القيـام بـه فـي السـجن هـو اسـتعادة أحـداث الماضـي، والتكهـن بـكل مـا يُحــتمل أنْ يقـع فـي مسـتقبلٍ قريـب.

---

(١) حاجز أمني مركزي بين محافظتي جبل لبنان والبقاع.

لـم أتوقـف عـن التفكيـر والقلـق فـي كل لحظـة، وانتظـرتُ مـا سـأعانيه ببقائـي هنـا... مِـن هَتْـكٍ واسـتباحةٍ واسـتغلال.

كان بإمـكان أي كلمـةٍ صغيـرة تُـقال تعريضًـا أو همسًـا فـي الأنحـاء، أو أي حـدث حتـى وإن كان لا يَمُـتُّ لـي بصلـة، أن يُفاقـم خوفـي ويحولـه إلـى هلـع واضطـراب. أمـا عـن الآخريـن، فهـم يقضـون أوقاتهـم بلعـب الـورق أو القمـار، والتحـدث مـع بعضهـم. أمـا عنـي فلـم أكـن قـادرًا سـوى علـى تعزيـز قلقـي! لذلـك طـال بـي الوقـت، ومـر بطيئًـا جـدًّا أبطـأ مِـن مـروره علـى بقيـة المسـاجين.
كنـت عندمـا أتذكـر شـيئا حصـل معـي قبـل يـوم، أشـعر أنَّ أسـابيع مـرت عليـه، حتـى الفـارق بيـن الصبـاح والليـل صـار كبيـرًا جـدًّا، بسـبب كثـرة الأحـداث والأفـكار التـي تتخبـط فـي داخلـي.

عنـد خروجـي لـم أفهـم كيـف مـر علـيَّ فـي سـجني أسـابيع قليلـة فقـط؟ بينمـا شـعرتُ أنـي سُـجنتُ لأشـهرٍ وربمـا لسـنوات!

بعـد مـرور عـامٍ مـن خروجـي، لازمنـي شـعورٌ بأنـي لازلـت بينهـم، ولا يزالـون يتهامسـون عنـي ويحيكـون المؤامـرات لإيذائـي.

واليـوم رغـم مـرور ٤ سـنوات، عندمـا أشـم رائحـة عـفن أو أدخـل مكانًـا لا يدخلـه الهـواء، يعـود لـي الإحسـاس بالهلـع نفسـه، وكأنـي رجعـت وسـطهم. لدرجـة أنـي ذهبـت لطبيـب نفسـي لأتغلـب علـى تلـك الهـلاوس ولـو بالـدواء. لكـن الـدواء إذا أذهـب عنـي بعضهـا حينًـا... أتـى بهـا دفعـةً واحـدةً فـي أحاييـن أُخـر!
صـرتُ عندمـا أفكـر بالذهـاب إلـى بلدتـي أخـاف مباشـرةً مـن رؤيـة

«الشاويش»، ويسألني لماذا كذبتُ عليه عندما سألني عن الحبة التي أخذتها في السجن. أعطاني إياها يومها «الحاج أنس» مقابل ستة ظروف نسكافيه كي يلعب القمار بها، ولأستطيع أنا النوم بعد ثلاث ليالي من بقائي مستيقظا. فضحت نفسي أمام «علاء» قبل يوم من خروجي لكن دون أن أذكر مصدر الحبة.

ثم بعد أسبوع اتصل بي «الشاويش» وسألني. لم تكن الحبوب متاحة قانونيًّا سوى للحاج أنس بسبب مرضه، وكانوا يريدون حُجَّة كي يتخلصوا منه. غالبًا حصل ذلك.. لكني فضلت عدم التأكد.
وفضلتُ التوقف عن الذهاب إلى البلدة. لم أكن مضطرًّا لرؤية «العريف» أيضا، فلربما يُطالبني بنقودٍ مقابل الليالي التي نمتها عندهم والطعام الذي أكلته على يد طباخهم. خشيتُ حتى مِن مقابلة أقارب أمي، ظننتُ أنَّ مَن كان يكرهني منهم سيؤذيني ويستقوي عليّ، لا لشيء إلا أني أبدو بلا ظَهْرٍ يحميني... أو هكذا يخيل إليّ دائما!
لم تتوقف نوبات الهلع... ولا تزال تزورني مِن وقت لآخر. أنتظر في كل لحظة أمرًا سيئًا على وشك الحدوث. أخمن أن يَشِي بي أحدهم مرة أخرى وأعود للسجن. وأرى رجوعي بين رفاق الغرفة مرة أخرى، يلوح لي ضيقهم ونبذهم، وذلك اليأس القابع في الأرجاء!
فاتني أنهم لم يعودوا مكانهم إلا في خيالي. أصبحوا في الخارج الطليق الآن. بينما لازلت أحبس نفسي بينهم هناك!